مكتبة البنين
قسم الدوريات

السنة الثالثة ـ العدد الثالث
١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م

الفهرست لابن النديم

دراسة بيوجرافية ببليوجرافية ببليومترية

أ . د . شعبان عبد العزيز خليفة
أستاذ علم المعلومات

الفهرست لابن النديم
دراسة بيوجرافية ببليوجرافية ببليومترية

أ . د . شعبان عبد العزيز خليفة
أستاذ علم المعلومات

« الفهرست » لابن النديم ليس مجرد ببليوجرافية تحصر وتسجل وتصف الكتب التي نشرت في العالم الإسلامي في القرون الأربعة الأولى للهجرة ، ولكنه في الواقع حقبة كاملة من حقب الفكر الإسلامي بل أجل هذه الحقب جميعا .

ولما كان « الببليومتريقا » هو ذلك الفرع من فروع علم المعلومات الذي يدرس الاتجاهات العددية والنوعية للانتاج الفكري سواء في فترة معينة أو في مجال بالذات أو لمؤلف محدد أو لفئة بعينها من القراء أو لشكل من أشكال ذلك الانتاج ، لما كان ذلك كذلك فإن الدراسة التي بين أيدينا تسعى إلى دراسة الاتجاهات العددية والنوعية للانتاج الفكري الإسلامي في القرون الأربعة الأولى للهجرة من واقع ذلك الحصر الذي يقدمه ابن النديم في الفهرست مع ما يقتضيه المقام من تحليل حياة ابن النديم نفسه وتحليل كتاب الفهرست باعتبارهما الخلفية التي تعمل فيها الدراسة .

(١)
ابن النديم وكتابه : دراسة بيوجرافية ببليوجرافية

لعل أعظم مؤلفين فرزتهما الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى هما ابن النديم والقلقشندي ، في كتابيهما « الفهرست » لابن النديم « وصبح الأعشى في صناعة الانشا » للقلقشندي .

ولم يظلم التاريخ مؤلفا كما ظلم ابن النديم ، فالمعلومات عن هذه الشخصية العبقرية نادرة ونستقيها بعد سلسلة معقدة من التحليلات والاستنتاجات الذهنية من كتاب الفهرست ، رغم أن المؤرخين والاخباريين توقفوا أمام شخصيات أقل أهمية وأقل شأنا مثل ابراهيم الموصلي ، ومعبد ، وسلامة القس ، وجميلة وحبابة وغيرهم من المغنين والقيان ، ويعزو البعض قلة الكتابات وندرتها عن ابن النديم إلى عدم تنبه المؤرخين إلى موهبته وعمله العلمي العظيم إلا بعد وفاته بفترة طويلة ومن ثم كانت المعلومات عن حياته قد اندثرت .

فابن خلكان (٦٠٨ ـ ٦٨١م) الذي قص علينا حياته الشخصية بالتفصيل الممل : ساعة ولادته ويومها والبلد والأهل والولد والأماكن والشوارع التي مشى فيها والناس الذين قابلهم ، لم يكلف خاطره بأن يذكر لنا سطوراً عن ابن النديم . وابن شاكر الكتبي الذي استدرك على ابن خلكان بكتابه الموسوم « فوات الوفيات » أغفل ذكره هو الآخر .

وياقوت الرومي في معجم الأدباء لم يسجل عنه سوى خمسة أسطر أغفل فيها تاريخ ميلاده ووفاته ، والصفدي في الوافي بالوفيات لم يكتب عنه إلا ثلاثة سطور . والوحيد الذي ذكره بشيء من التفصيل هو ابن حجر العسقلاني وقد كال له الشتائم والتجريح .

تتجلى عبقرية ابن النديم في أنه وضع يده على أهمية وخطورة « الضبط الببليوجرافي » للانتاج الفكري وذلك منذ أكثر من عشرة قرون كما تتجلى عظمة « الفهرست » في أنه أول ثبت ببليوجرافي اقليمي شامل لما نشر في العالم الإسلامي من كتب حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، وهذا الثبت هو مرآة للثقافة والفكر الإسلاميين حتى وإن ضاعت أصولها بفعل العوامل المختلفة . وكم كنا نتمنى لو بقيت لنا فهارس كاليماخوس بعد فناء مكتبة الاسكندرية القديمة .

وابن النديم هو : محمد بن اسحق بن محمد بن اسحق النديم ، ويكنى بأبي الفرج . وقد لقب أبوه بالنديم إما لأنه كان من ندماء الخلفاء أو الأمراء وعلية القوم أو لأنه كان حلو الحديث ، حسن المعاشرة كثير السمر مع الاخوان والخلان ، يألف ويؤلف بسرعة . والأولى أقرب للواقع إذا ركنا إلى تحليلات كتاب الفهرست نفسه في قضايا المنادمة . ويمكننا أن نستنتج تلقيب مؤلفنا أيضا بالنديم مثل أبيه فياقوت الحموي الرومي يشير إليه على أنه محمد بن اسحق النديم[١] ، وابن أبي أصيبعة يشير إليه مرات على أنه ابن النديم ومرة واحدة على أنه النديم[٢] . وأكثر من هذا فإن صفحة عنوان مخطوطة الفهرست الموجودة في مكتبة شستربيتي في دبلن تحمل عنوان « كتاب الفهرست للنديم »[٣] وعلى نفس صفحة العنوان في المخطوطة المذكورة وقفية ورد فيها اسم المؤلف « المعروف بالنديم »[٤] . ولا أعتقد أن تلقيب صاحب الفهرست بالنديم مثل أبيه جاء على سبيل العجلة أو الاختصار أو الغفلة بل جاء على سبيل التبادل مع صيغة ابن النديم في المصادر العربية وأكدته المصادر الأجنبية وعلى رأسها الترجمة الانجليزية التي قام بها بيارد دودج الذي عنون ترجمته[٥] « The Fihrist of AL-Nadim » ، والطبعة الايرانية من الفهرست التي تحمل نفس العنوان « كتاب الفهرست للنديم »[٦] .

وصاحب الفهرست يشير إلى نفسه داخل كتابه على أنه محمد بن اسحق ولم يشر إلى نفسه أبدا على أنه ابن النديم أو النديم عندما كان يريد أن يبدي رأيه الشخصي أو يبدأ حديثا بعد أحاديث الآخرين[٧] .

و « ابن النديم » أو « النديم » لقب أضافه الناسخون الذين نسخوا كتابه حيث لم تصلنا النسخة الأصلية التي بخطه .

عاش ابن النديم في القرن الرابع الهجري ولكننا لا نعرف على وجه اليقين متى ولد ولا متى توفى . والتحليلات في ذلك متداخلة بل ومتضاربة . وقد ساعد ابن النديم نفسه في الفهرست على هذا التداخل والتضارب ، فقد ورد في أكثر من موضع في كتابه أن المؤلف قد انتهى من تأليف كتابه سنة ٣٧٧ هـ ، ولم يقل لناكم كان عمره آنذاك أو على الأقل في أية مرحلة من عمره كان . بل وأكثر من هذا ترك ابن النديم فراغات كثيرة في كتابه ليستكملها فيما بعد عندما يعثر على المعلومات الناقصة كما طلب إلى الآخرين ممن ينظرون في كتابه استكمال تلك المعلومات إذا وقفوا عليها . ومن هذا المدخل نجد معلومات في كتابه ترجع إلى ما بعد التاريخ الذي حدده لتأليفه وهو سنة ٣٧٧ هـ منها ما يرجع إلى ٣٧٨ هـ ، ٣٨٥ هـ ، ٣٨٨ هـ ، ٣٩٠ هـ ، ٣٩٢ هـ ، ٤١٢ هـ (أي بداية القرن الخامس الهجري) . ولا نعرف يقينا هل هو الذي أضافها أم أضافها غيره حسب طلبه . ومما يزيد في حيرتنا أن التواريخ المذكورة ، بعد سنة ٣٧٧ هـ اتبعت بعبارات تؤكد أنه هو الذي أضافها مثل « في زماننا هذا » ، « ويحيا إلى وقتنا هذا » ، « إلى وقتنا هذا » ، « ما أنا ذاكره إلى وقتنا هذا » وغير ذلك من العبارات .

ولم يذكر أي من المصادر تاريخ ابن النديم ولو على سبيل التقريب . وإذا اعتمدنا على نصوص كتاب الفهرست فإننا يمكن أن نخرج بتاريخ تقريبي قد يجانبه الصواب بخمس سنوات على الأقل . فقد ذكر ابن النديم عند حديثه عن أبي بكر محمد بن عبد الله البردعي « رأيته سنة ٣٤٠ وكان بي آنسا »[٨] وفي معرض حديثه عن أبي عبد الله الصفواني « لقيته في سنة ٣٤٦ »[٩] . والبردعي هو الذي شرح لابن النديم مذهب المعتزلة وأعطاه قائمة بكتب الفقه التي ألفها لدراستها . وقد أعجب البردعي بابن النديم بدليل أنه أنس به . كما يذكر ابن النديم في الفن الأول من المقالة السابعة واقعة رآها في سن الوعي والادراك حيث يقول « والذي رأيت أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل بن العميد أنفذ إلى ها هنا في سنة نيف وأربعين كتبا متقطعة أصيبت بأصفهان في سور المدينة في صناديق وكانت باليونانية »[١٠] ، وغير ذلك من الاشارات المعبرة في الفهرست .

وأصغر التواريخ المذكورة وهو ٣٤٠ هـ يكشف عن أن ابن النديم كان في سن النضج والوعي والادراك الفكري وبالتالي يمكن أن يكون سنه آنذاك بين عشرين وخمس وعشرين سنة . ولذلك نميل إلى اعتبار ميلاده بين ٣١٥ هـ و٣٢٠ هـ أي أنه ولد في عهد أي من الخلفاء : المقتدر أو القاهر أو الراضي على أكثر تقدير وإن كان فلوجل يرى أنه ولد حوالي ٣٢٥ هـ[١١] .

وإذا كانت نصوص الفهرست قد ساعدتنا على تحديد تاريخ تقريبي لميلاد ابن النديم فإنها بالاضافة إلى المصادر الروائية جعلت تاريخ وفاته مليئاً بالتضارب والتداخل ولا يمكن تحديده بأي قدر من اليقين .

فمن المصادر الروائية ما يؤكد أنه توفى سنة ٣٨٠ هـ . وعلى هذا التاريخ الصفدي في الوافي بالوفيات والمقريزي في الملحوظة التي سجلها على صفحة عنوان مخطوطة شستربيتي والتي تحدد الوفاة بيوم « الأربعاء لعشر بقيت من شعبان سنة ثمانين وثلثمائة »[١٢] . ومن المصادر الروائية أيضا ما حدد الوفاة بسنة ٣٨٥ هـ ، مثل ابن النجار في « ذيل بغداد » الذي ذكر أنها كانت « يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان سنة خمس وثمانين وثلثماية »[١٣] .

على أننا نصادف تاريخاً آخر متأخراً جدا عن هذين التاريخين وهو الذي جاء به ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان رواية عن أبي طاهر الكرخى الذي ذكر بأن صاحب الفهرست توفى « سنة ثمان وثلاثين » يقصد ٤٣٨ هـ[١٤] .

وجميع المصادر الروائية التي جاءت بعد تلك المصادر تبنت أحد التواريخ الثلاثة حتى تلك المقدمات التي كتبت لطبعات الفهرست . فعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين وخير الدين الزركلي في الأعلام وعمر الدقاق في مصادر التراث العربي وغيرهم مالوا إلى اعتبار تاريخ الوفاة ٤٣٨ هـ (١٠٤٧ م)[١٥] . أما د . ناهد عباس عثمان وعبد الكريم الأمين وابراهيم الابياري فهم يجنحون إلى اعتبارها ٣٨٠ هـ كما سأعلق بعد ذلك[١٦] . وأستاذ الجامعة المصرية في طبعة القاهرة وطبعة بيروت فيميل إلى سنة ٣٨٥ هـ .

واستنادا إلى نصوص الفهرست نفسه فأنا أرجح التاريخ الذي قال به ابن حجر العسقلاني وهو ٤٣٨ هـ (١٠٤٧م) . فهناك من النصوص ما نعتقد أن ابن النديم كتبها بنفسه بعد تاريخ ٣٨٥ هـ ، فتحت عيسى بن زرعة نجد « وكانت وفاة ابن زرعة سنة ثمان وثمانين وثلثمائة في زماننا هذا »[١٧] . وفي معرض ترجمته لابن جنى اللغوي يقول : « وأن وفاة ابن جنى سنة اثنين وتسعين وثلثمائة »[١٨] . وعن ابن نباتة التميمي يقول : « إن وفاته كانت بعد الأربعمائة »[١٩] ، وقد حدد ابن حجر تلك الوفاة بسنة ٤١٢ هـ .

من هذه النصوص وغيرها مما يماثلها نرجح أن وفاة ابن النديم كانت في حدود ٤٣٨ هـ فعلاً ولا ينبغي أن ينصرف ذهننا إلى أن تلك المعلومات قد أضافها آخرون بعد وفاته حسب طلبه . أما الكتاب الذين ذكروا أن وفاة ابن النديم كانت سنة ٣٨٠ هـ فقد بنوا تقديرهم على فهم خاطىء وتناولوه مؤلفا بعد آخر ، فقد ذكر ابن حجر أن وفاة ابن النديم كانت « سنة ثمان وثلاثين » نقلا عن الكرخى . ومن المؤكد أن الكرخى كان يقصد ٤٣٨ هـ لأنها لا يمكن أن تكون ٣٣٨ هـ ولا

٥٣٨ هـ ولكن الأستاذ ابراهيم الابياري عندما قرأها على هذا النحو توهم أن هناك تحريفاً عن ثمانين وثلثمائة « لتتفق وما أورده الصفدي » . وقد نقل الأستاذ عبد الكريم الأمين في مقال له نص الأستاذ الابياري ـ كما نقل معظم دراسته ـ حيث قال « ولعل هذا تصحيف صحيحه ٣٨٠ هـ » كما نقلت الدكتورة ناهد عثمان هذا الخطأ من الأستاذ عبد الكريم بنفس ألفاظه[٢٠] .

ومن هذا المنطلق نميل إلى القول بأن ابن النديم عاش القرن الرابع الهجري وألف كتابه بعد سن الخمسين ويكون إما قد عاش ستين عاماً كحد أدنى أو مائة وعشرين عاما كحد أقصى .

ومن المؤكد أن ابن النديم قد نشأ في بيت علم وفكر فقد كان أبوه وراقا أي ناشراً بمفهومنا المعاصر يتعامل مع العلماء والمفكرين ومع ثمار العقول من كل حدب وصوب . ورغم أن القرن الذي عاشه المؤلف كان قرن ضعف للدولة العباسية وتفكك سياسي للأمة الإسلامية إلا أنه كان قرن النضج الفكري والعقلي في العالم الإسلامي . وكانت مكتبة بيت الحكمة التي أسسها هارون الرشيد في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري في أوج ازدهارها في القرن الرابع . وكان التنافس بين الحكام على أشده لاجتذاب العلماء وتشجيع الانتاج الفكري والبحث العلمي .

ففي العراق وبلاد فارس وخراسان كان هناك بنو بويه (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) الذين عرف عنهم حب العلم وتشجيع العلماء . وكانوا لا يستعينون بوزير إلا مبرزاً في العلم والأدب فمن وزرائهم الصاحب بن عباد ، وسابور بن اردشير وابن العميد والمهلبي . ولقد أنشأ سابور بن أردشير في الكرخ ببغداد مكتبة يقال إنه لم يكن في الدنيا أحسن منها حيث كانت كتبها جميعا من الأصول بخطوط مؤلفيها أو كبار الخطاطين .

وفي نفس الوقت كان السامانيون يحكمون تركستان حيث كانت بخارى مركزاً هاما من مراكز العلم والأدب والبحث العلمي . وكان من حكامهم منصور بن نوح (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) الذي استوزر البلعمي العالم الفارسي وهو الذي ترجم له كتاب الطبري إلى اللغة الفارسية ، وجاء بعده ابنه نوح بن منصور (٣٦٦ ـ ٣٨٧ هـ) الذى أراد أن يستوزر الصاحب بن عباد وزير البويهيين في بغداد وكانت مكتبة الصاحب بن عباد تحمل على أربعمائة جمل . ومما يؤثر عن نوح بن منصور أنه أنشأ مكتبة عظيمة للدولة زارها ابن سينا وذكر أنه استفاد من مجموعتها فائدة جمة . وكان في طبرستان الزياريون الذين كان من أقوى ملوكهم قابوس بن وشمكير(٣٦٦ ـ ٤٠٣ هـ) . وكان عالما وأديبا ومن أبلغ كتاب العربية في ذلك الوقت .

وقامت في أفغانستان والهند الدولة الغزنوية والتي كان أقوى ملوكها محمود الغزنوي الذي كان له شغف بالعلم و الأدب وحدب على أهله ، ما سمع عن عالم أو أديب إلا استقدمه في بلاطه حتى ولو

كان في حضرة حاكم آخر . وفي خوارزم كذلك كان هناك مأمون بن مأمون الذي تحلقه علماء وأدباء أفذاذ من بينهم ابن سينا والبيروني والخمار .

وفي حلب والموصل كانت الدولة الحمدانية وعلى رأسها سيف الدولة الحمداني (٣٣٦ - ٣٥٦ هـ) الذي اجتمع حوله فحول الشعراء وعلى قمتهم المتنبي شاعر سيف الدولة .[٢١]

أما في مصر وشمال افريقيا فقد قامت الدولة الفاطمية التي بدأت بانشاء الجامع الأزهر والذي كان بمثابة جامعة لها أثرها الجليل في تنمية العلوم . وبرز من الخلفاء الفاطميين خليفتان لهما دورهما الخطير في ازدهار الحياة الفكرية ألا وهما العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦ هـ) والحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤٤١ هـ) . ومما يؤثر عن العزيز بالله مكتبته الضخمة التي حوت مئات الآلاف من المجلدات ، كما أنشأ الحاكم بأمر الله « دار الحكمة » على غرار « بيت الحكمة » وكانت بمثابة أكاديمية للبحث العلمي والتلاقح الفكري .

أما الأندلس في ظل المروانيين فكان في ذلك الوقت على قمة المنافسة العلمية والفكرية مع الشرق الاسلامي ومن بين خلفاء الأندلس العظماء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم (٣٥٠-٣٦٦ هـ) . ومن المعروف عن خلفاء الأندلس حبهم للعلم وتهيئة الجو المناسب للبحث العلمي وانشائهم للمكتبات . ولقد أنشأ الحكم بن عبد الرحمن الناصر مكتبة ضخمة في قرطبة يقال انها حوت ما يقرب من نصف مليون مجلد . وكان لكل فرع من فروع المعرفة فهرس خاص به . وكانت فهارس الشعر وحده تقع في أربعة وأربعين مجلداً كل مجلد في عشرين ورقة . ورغم تفسخ الأندلس الى دويلات الطوائف فقد حرص ملوك الطوائف كل على حدة على تشجيع العلم والعلماء وانشاء المكتبات . ويذكر المؤرخون من بينهم اسماعيل بن ذي النون الذي كانت وفاته سنة ٤٣٥ هـ .[٢٢]

كان الحكام في كل أنحاء العالم الاسلامي يبذلون من مالهم ووقتهم الشيء الكثير للعلماء والأدباء ولذلك راجت دولة العلم والأدب رواجاً كبيراً وكثر التأليف والتصنيف وانتشرت دور الوراقة على نطاق واسع وكان للوراقين مكانة خاصة .

عاش ابن النديم إذن القرن الرابع الهجري في هذا المناخ الفكري مما أثر تأثيراً عميقاً في تكوينه العقلي والشخصي . وطبقا للمناخ التربوي والتعليمي في ذلك القرن يمكننا أن نتصور ان ابن النديم قد التحق بحلقات تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم في أحد الجوامع ببغداد التي ولد بها ، وربما كان ذلك في سن السادسة من عمره ، وكان تعليم القراءة والكتابة يتم على الواح خشبية كما كان حفظ القرآن يتم عن طريق الاستظهار . ولقد أتم حفظ القرآن كله عندما بلغ العاشرة من

العمر مما هيأه لتعلـم علوم أكثر عمقاً مثل علوم اللغة والبلاغة وتفسير القرآن والحديث وعلم التجويد والأدب .

ومن المؤكد أنه إلى جانب تحصيل العلم على هذا النحو كان يعاون أباه في ادارة « دار الوراقة » التي كان يعمل فيها كما ساعد عمليا في نسخ بعض المخطوطات وبيعها . ومن هنا بدأ في سن مبكرة ـ ربما في الخامسة عشرة ـ لقاءاته الفكرية مع العديد من المؤلفين والمفكرين على النحو الذي أشرت اليه من قبل كما حدث في لقائه مع أبي بكر محمد بن عبدالله البردعي وأبي عبدالله الصفواني وغيرهما .

ومن بين سطور الفهرست والشذرات المتناثرة هنا وهناك يمكننا أن نخرج بأسماء عدد ممن تعلم عليهم ابن النديم وأخذ عنهم . ويأتي على رأسهم اسماعيل الصفار الذي أجازه بالرواية عنه فيما يقول ابن حجر العسقلاني . وكان الصفار عالما وحجة في الحديث النبوي ؛ ومن بينهم كذلك أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني الشهير ، وأبو اسحاق السيرافي الذي أخذ عنه علوم الشريعة والفقه وكان حجة فيها ، وأبو عبدالله المرزباني وكان حجة في التواريخ والأخبار .[٢٣]

ويشير ابراهيم الأبياري إلى أن من بين معلمي ابن النديم ، الحسن بن سوار الذي كان حجة في علم المنطق وترجم عددا من الكتب العلمية ، وأبو أحمد الحسن بن اسحق بـن الكرنيب الذي كان عالما في الطبيعيات والآلهيات ، ويونس القاضي الذي كان عالما في الرياضيات وله فيها كتب مترجمة ، وأبو الحسن محمد بن يوسف النقيط الذي كان حجة في اليونانيات .[٢٤]

وكان من الطبيعي بعد أن توفى أبوه أن يرث « دار الوراقة » ويرث تلك المهنة الشريفة التي أحبها منذ نعومة أظافره فعمل صاحبنا مثل أبيه وراقا . واضافة الى مهنة الوراقة تؤكد بعض المصادر على أنه كان كاتبا . ولسنا ندري هل يقصد بها أنه كان مؤلفا يكتب الكتب أم أنه كان كاتبا يدبج الرسائل في ديوان الانشاء أو ديوان الرسائل . هذا ما لا توضحه المصادر فالذهبي يقول عنه « محمد بن اسحق بن النديم الاخباري الأديب » ، وابن أبي أصيبعة يشير اليه مراراً على أنه الكاتب .[٢٥] وكلمة كاتب تحتمل الغمل في ديوان الانشا حيث ذكر ابن النديم عن « أبو سعيد بن وهب » في الفن الثاني من المقالة الثالثة : « وكان بقية من رأيناه من الكتاب » يقصد كتاب الانشا . كما تحتمل معنى « الخطاط » أو الناسخ بدليل ما ورد في الفهرست تحت عنوان « ومن كتاب المصاحف » في الفن الأول من المقالة الأولى ، ويقول ابن النديم في نفس الفن في موضع آخر يصف الناسخ « وكان قطبة أكتب الناس على الأرض » ؛ « ثناء الكاتبة » .[٢٦]

ولأن ابن النديم كان يكنى بأبي الفرج فلابد وأن يكون قد تزوج وأنجب ولداً واحداً على الأقل . وقد ولد في بغداد وتوفى أيضا فيها إذ اتخذها مقراً ومقاماً ولم يثبت لنا أنه ارتحل خارج العراق .

وإلى جانب كتاب الفهرست ألف ابن النديم كتابا آخر لم يصل إلينا هو « الأوصاف والتشبيهات » أشار إليه ابن النديم إشارة عابرة في الفن الأول من المقالة الأولى في معرض حديثه عن فضائل الكتب حين قال ما نصه « قد استقصيت هذا المعنى وغيره مما يجانسه في مقالة الكتابة وأدواتها من الكتاب الذي ألفته في الأوصاف والتشبيهات . وهذه هي الإشارة الوحيدة إلى كتاب آخر له ، وربما يكون قد ألف كتبا أخرى لم يجد مناسبة للإشارة إليها . ومن الطبيعي أن يكون قد ألف كتاب الأوصاف والتشبيهات قبل كتاب الفهرست ولكننا لا نعرف حدود الفترة بينهما .

وترجع فكرة تجميع كتاب الفهرست إلى أن ابن النديم قد بدأ في شبابه الباكر جمع أسماء الشعراء والقصائد التي نظمها كل منهم ووضع تلك المعلومات تحت تصرف كل من يرغب في تأليف كتاب عن أي منهم على النحو الذي ورد في بداية الفن الثاني من المقالة الرابعة ثم تطورت الفكرة بعد ذلك إلى جمع الإنتاج الفكري في مجال آخر ثم في مجال ثالث وهكذا حتى أتى على كل المجالات التي كانت معروفة في عهده ؛ نستشف ذلك من بعض العبارات غير المتسقة التي وردت في نهايات بعض المقالات في كتاب الفهرست . وأغلب الظن أنه كان يضيف إلى جانب البيانات الببليوجرافية عن الانتاج الفكري بيانات بيوجرافية عن المؤلفين كنوع من التقييم لهم ولانتاجهم . ومع مرور الوقت اتسع اهتمامه بالإنتاج الفكري واتسع ما جمعه عنه مما اضطره إلى تنسيق معلوماته في مجالات وفي داخل كل مجال رتب المؤلفين والكتب في نسق خاص كما سنرى ذلك تفصيلا بعد . وربما يكون ابن النديم قد هدف من وراء ذلك في البداية الى خدمة دار الوراقة الخاصة به وبوالده ثم وسع الهدف بعد ذلك ليصبح العمل ببليوجرافية شاملة لكل الإنتاج الفكري الإسلامي في القرون الأربعة الأولى للهجرة ؛ وليصبح أول ببليوجرافية شاملة ومنهجية تعرفها العصور الوسطى .[٢٧]

أما عن مصادر جمع المادة العلمية في كتاب الفهرست فإننا نستطيع أن نستقيها تحليلا من الكتاب نفسه ونردها إلى الفئات الآتية :

١ ـ مهنة الوراقة :

وقد قلنا مهنة الوراقة ولم نقل فقط « دور الوراقة » لأن المهنة أتاحت له ثلاثة مصادر هامة يستقى منها جانباً كبيراً من المعلومات التي أتى عليها في كتابه إذا أتاحت له الإطلاع على كتب كثيرة وهي الكتب التي يتاجر فيها بيعا وشراء وانتساخاً ، وهذه الكتب هيأت له معلومات مباشرة . كما أتاحت له مهنة الوراقة الإلتقاء والإحتكاك والأتصال بعدد كبير من المؤلفين والمثقفين الذين يرتادون سوق الكتب ويتعاملون فيها أو يحضرون الندوات والحلقات والإجتماعات العلمية . كما أتاحت له المهنة زيارة المكتبات الشخصية التي كانت منتشرة انتشاراً واسعاً آنذاك وقد ذكر أنه عثر على أحد كتب اقليدس في مكتبة خاصة في الموصل .[٢٨]

٢ ـ المكتبات الرسمية :

وكانت تلك المكتبات قد انتشرت انتشاراً كبيراً في الدولة الإسلامية ومن المؤكد أن بيت الحكمة التي كانت قد أنشئت في عهد الرشيد في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري استمرت في الوجود حتى اجتياح المغول بغداد سنة ٦٥٦ هـ . وهناك إشارات عديدة في الفهرست تؤكد استفادته منها فائدة كبرى هي وغيرها من المكتبات الرسمية في بغداد . كما زار ابن النديم الكوفة والبصرة اللتين انتعشت بهما الثقافة الإسلامية طوال القرون الأربعة الأولى للهجرة ، كما زار الموصل ، إذ أشار ابن النديم إلى أنه التقى هناك بأحد جامعي الكتب وزار مكتباتها الرسمية . ومن المحتمل أن يكون قد زار حلب أثناء حكم سيف الدولة الحمداني .[٢٩]

وكانت المكتبات الرسمية في عصر ابن النديم تقتني مجموعات ضخمة بعضها يصل إلى عدة ملايين من المجلدات كما هو الحال في مكتبة بيت الحكمة وبعضها يصل إلى مئات الآلاف كما هو الحال في مكتبة الحكم (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) وقد بلغت مجموعاتها أكثر من ٤٠٠ ألف مجلد . وقد ذكر ابن النديم أن بعض مكتبات بغداد بخلاف بيت الحكمة بلغت مجموعاتها أكثر من مائة ألف مجلد كلها جيدة النسخ والتجليد وكان من بينها « ستة آلاف مجلد وخمسمائة في علمي الفلك والطب وحدهما » .[٣٠]

٣ ـ **فهارس المكتبات والببليوجرافيات السابقة عليه** : من المؤكد أنه قد سبقت ابن النديم محاولات لاعداد ببليوجرافيات متخصصة في موضوعات محددة أو لشخص بالذات كما هو الحال في « فهرست ماروواه عن شيوخه » أو « برامج القراء » كما كانت هناك فهارس تحصر وتسجل وتصف مقتنيات المكتبة وكانت هذه الفهارس بحالة ممتازة على أيام ابن النديم ، وكانت فهارس المكتبات الكبيرة تقع في مئات المجلدات ، نجد إشارات عنها هنا وهناك في الفهرست ومن الضروري أن يكون مؤلف الفهرست قد أفاد منها فائدة كبرى . هذه الفهارس للأسف دمرت تدميراً شديداً مع تدمير المكتبات نفسها على يد المغول وغيرهم مما يرفع كثيراً من قيمة « الفهرست » الذي يعطينا صورة كاملة عن الانتاج الفكري الاسلامي الذي دمرته صروف الدهر .

٤ ـ **فهارس المؤلفين** : دأب كبار المؤلفين المسلمين على إعداد قوائم بالكتب التي الفوها كضرب من ضروب توثيق هذا الانتاج والدعاية له ، كما دأب وراقو بعض هؤلاء المؤلفين على إعداد تلك القوائم وكثيراً ماأشار ابن النديم الى تلك القوائم كمصدر من مصادر إعداد الفهرست ، وعلى سبيل المثال يقول ابن النديم في الفن الثاني من المقالة السابعة « وإذا رجعنا إلى فهرست كتب

جالينوس الذي عمله حنين إلى علي بن يحيى ، علمنا أن الذي نقل حنين أكثره الى السرياني ، وربما أصلح العربي من نقل غيره أو تصفحه » وتحت اخبار جابر بن حيان وأسماء كتبه في المقالة العاشرة ـ اسماء كتبه في الصنعة ـ « له فهرست كبير يحتوي على جميع ماألفه في الصنعة وغيرها ، وله فهرست صغير يحتوي على ما ألفه في الصنعة فقط » ومثل هذه الاشارات كثيرة جداً في كتاب ابن النديم[٣١] .

٥ ـ **أهل الثقة والذكر** : كثيراً ماكان ابن النديم يلجأ إلى أهل العلم والمعرفة يسألهم عن المؤلفين ومؤلفاتهم عندما تعوزه المصادر الأخرى ، وكان لايثبت من المعلومات التي يسمعها منهم الا مايثق فيه ويمحصه ويفحصه ، وقد سد هذا المصدر ثغرات كثيرة في نسيج الفهرست كما يتضح ذلك من تحليل بيانات الكتاب نفسه ، ومن الأمثلة على ذلك « . . . . ونحن نذكر جملاً من كتبه رأيناها وشاهدها الثقات فذكروها لنا » ، « . . . قال البلخي واصل من أهل المدينة ، مولده سنة ثمانين ومات سنة إحدى وثلاثين ومائة وله من الكتب . . . » وتتردد عبارات « ذكرها الثقاة لي » ، « قال لي ممن أثق في علمه » كثيراً في الفهرست مما يكشف عن أن هذا المصدر هو من أهم مصادر جمع المعلومات في كتاب ابن النديم[٣٢] .

ومن هنا يمكننا القول مطمئنين بأن المعلومات التي وردت في الفهرست :

أ ـ إما أن يكون ابن النديم قد قرأها بنفسه ونقلها عن المصادر المكتوبة ، ب ـ أو يكون قد شاهدها وخبرها بنفسه ومن ثم عبر عنها بطريقته ، ج ـ أو يكون قد سمعها وغربلها وسجل مارأى أنه يستحق التسجيل وهي جيمعاً أمور سوف نعالجها تفصيلاً في الدراسة الببليومترية .

أما عن الوقت الذي ألف فيه كتاب الفهرست فقد نص عليه ابن النديم صراحة في عدة مواضع وهو سنة ٣٧٧هـ ، الا اننا نميل في الواقع إلى اعتبار هذا التاريخ بداية للتأليف وليس نهاية له حيث نجد في نصوص الفهرست تواريخ متأخرة عن هذا التاريخ ، بل نجد وقائع محددة وقعت بعد التاريخ المذكور آخرها ٤١٢هـ ، ولذلك يذهب خير الدين الزركلي إلى أن ابن النديم قد « الف الفهرست في شبابه وعاود النظر فيه في كهولته » لأن المؤلف في عرف الزركلي توفى ٤٣٨هـ (١٠٤٧م) .

إلا أن بيارد دودج يشكك في التواريخ اللاحقة على ٣٧٧هـ ويرى أنها أضيفت بعد وفاة المؤلف على يد الناسخ ، ويقول بأن ابن النديم لو عاش إلى ٤٣٨هـ لأضاف معلومات عن ابن سينا وإخوان الصفا والبيروني وهم جميعاً من أعلام نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري[٣٣] .

والحقيقة أن الخلاف حول تاريخ بدء العمل وتاريخ الانتهاء منه في كتاب الفهرست يمكن حسمه بتطبيق مفاهيم علم الببليوجرافيا التطبيقي على هذه القضية فهذا العلم يطلب من الببليوجرافي وضع حدود زمنية وحدود جغرافية وحدود شكلية وحدود لغوية وحدود موضوعية للقائمة الببليوجرافية والالتزام بتلك الحدود عند التنفيذ الفعلي لها ، والحد الزمني والذي يقصد به تاريخ الاقفال في أية قائمة يختلف حتماً عن تاريخ النشر أو تاريخ الاصدار ومن الطبيعي أن يسبقه ، والذي يقرأ مقدمة ابن النديم للفهرست ونص الكتاب قراءة ببليوجرافية متأنية يدرك يقيناً أن تاريخ ٣٧٧هـ هو تاريخ الاقفال وليس بالضرورة تاريخ الانتهاء من العمل ، وهذا يفسر لنا وجود معلومات عامة بعد هذا التاريخ مثل وفاة شخص أو اكثر بعد سنة ٣٧٧هـ ، المهم أن المؤلف يؤكد ان الكتب التي حصرها في عمله ومؤلفيها تقف عند هذا التاريخ وهذا يفسر لنا لماذا لم يدرج ابن سينا والبيروني وإخوان الصفا وغيرهم ممن جاءوا بعد هذا التاريخ لأنهم لايدخلون في تاريخ الاقفال الخاص به . . ومن جهة ثانية فإنه قد استقر في ضميري الاكاديمي بعد قراءة كتاب الفهرست قراءة واعية متأنية وتطبيق معايير علم الببليوجرافيا النقدية أن ماوصلنا من هذا الكتاب هو المسودات فقط ولم تصلنا النسخة النهائية .

والحقيقة انه لايوجد حتى الآن ـ في مبلغ علمنا ـ مخطوطة واحدة كاملة في اي مكان في العالم من كتاب الفهرست كتلك التي كانت متداولة في سوق الكتب على أيام ابن لنديم وبعده حتى دمار بغداد ، ولقد تبعثرت أشلاء هذا المخطوط في مناطق متفرقة من العالم في فترات مختلفة وبحيث يمكن القول بأنه لاتوجد طبعة كاملة من هذا الكتاب ، وتتوزع قطع مخطوطات هذا الكتاب على أماكن مختلفة أهمها مكتبة شستربيتي في دبلن ، ومكتبة شهيد علي باشا في استانبول ، ومكتبة كوبريللي في استانبول ايضاً ، ومكتبة خانقاه السعيدية بمدينة تونك ، والمكتبة الاهلية في باريس ، ومكتبة ليدن ، ومكتبة ڤيينا ، ومكتبة طنجة ، ودار الكتب المصرية بالقاهرة .

وكانت أول طبعة محققة تحقيقاً علمياً من الفهرست هي تلك التي توفر عليها جوستاف فلوجل ونشرها في ليبزج ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ ، وقامت المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ بإصدار طبعة أخرى من الفهرست اعتمدت فيها اعتماداً كاملاً على طبعة فلوجل ولكن بعد حذف الحواشي والتعليقات ، وطبعة الرحمانية هذه قامت المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة بإعادة إصدارها في أوائل الخمسينات ولكن بدون تاريخ نشر ، وقامت دار المعرفة باعادة طبع نفس تلك الطبعة بدون أي إضافة سنة ١٩٧٨ .

وفي سنة ١٩٦٤ قامت مكتبة خياط في بيروت باعادة اخراج طبعة فلوجل في مجلد واحد عن طريق التصوير دون اي تغيير ودون أية إضافة ، وفي سنة ١٩٧٠ قام بيارد دودج بتحقيق وترجمة الفهرست

الى اللغة الانجليزية ونشرته مطبعة جامعة كولومبيا بنيويورك في مجلدين ، وفي سنة ١٩٧١ ظهرت في طهران طبعة جديدة من الفهرست محققة بعناية وتوفر عليها رضا تجدد ، وفي سنة ١٩٨٥ صدرت طبعتان جديدتان من الفهرست إحداهما في الدوحة عاصمة قطر والثانية في الجزائر وتونس كنشر مشترك أما طبعة الدوحة فقد توفرت عليها د . ناهد عباس عثمان وتمثل اطروحتها للدكتوراه ، بينما طبعة الجزائر/ تونس فقد حققها وقدم لها مصطفى الشويمي .

وفي سنة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ صدرت طبعة محققة تحقيقاً كاملاً وأعدت لها ثلاثة كشافات مستفيضة بالمؤلف والعنوان والموضوع ، توفر عليها صاحب الدراسة ونشرتها دار العربي للنشر والتوزيع بالقاهرة .

ورغم كل هذه الطبعات فإن الباب مازال مفتوحاً أمام اجتهادات أخرى واكتشافات في فهرست ابن النديم ، فقد خرجنا بأن النسخة النهائية من الفهرست لم تصل الينا وأن ماوصلنا في الواقع ليس إلا المسودات فقط ، وقد بني هذا الاستنتاج على عشر قرائن من واقع نصوص الفهرست نفسه من بينها الفراغات الكثيرة الموجودة في الكتاب والتي تركها المؤلف لاستكمالها في النسخة النهائية ولم يستكملها وقد بلغت تلك الفراغات ٢٦١ فراغاً متنوعاً .

الفهرست لابن النديم : دراسة ببليومترية

ورد عنوان كتاب ابن النديم في جل المصادر « الفهرست » دون أية اضافة ولم يشذ عن هذا الاجماع الا القليل جداً من المصادر فقد أسماه بن حجر العسقلاني « فهرست العلماء » وأسماه الخليل ابن ايبك الصفدي « الفهرست في اخبار الادباء » وأطلق عليه ياقوت الحموي الرومي « فهرست الكتب » وحاجي خليفة أسماه « فهرست العلوم » ومخطوطة تونك تحمل عنواناً اضافياً هو « فوز العلوم »[٣٤] .

وأغلب ظني أن ابن النديم نفسه لم يضع عنواناً للكتاب ولم يسمه بل وصفه في المقدمة فقط بقوله « هذا فهرست كتب جميع الامم » والنسخ التي انتسخها الناسخون بعد ابن النديم وضعوا لكل مقالة رقماً واسماً جامعاً مثل « المقالة الاولى من كتاب الفهرست في اخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين واسماء كتبهم » و « المقالة العاشرة من كتاب الفهرست في اخبار العلماء في سائر العلوم القديمة والمحدثة وأسماء ماصنفوه من الكتب » ، وعندما أراد الناس الاشارة الى الكتاب قالوا فهرست ابن النديم على سبيل الاختصار فصار الاسم عنواناً للكتاب بعد ذلك .

وكان الهدف من هذا العمل هو حصر وتسجيل ووصف الكتب التي ورقت في العالم الاسلامي باللغة العربية سواء كانت مؤلفة أو مترجمة وقد اقتضى الحصر الحديث عن المؤلفين أنفسهم كما تطلب

تصنيف الانتاج الفكري معالجة فروع المعرفة البشرية وتأطيرها وشرح محتويات كل فرع ومن هنا جاء الفهرست :

١ ـ قائمة ببليوجرافية اقليمية مشروحة .

٢ ـ معجم تراجم .

٣ ـ دائرة معارف .

وجاء الاهتمام بهذه المحاور الثلاثة على هذا الترتيب وربما جاء اختلاف تسمية الفهرس بين بعض الكتاب بسبب ذلك فالذي اسماه « فهرست الكتب » كان ينظر اليه من الزاوية الببليوجرافية والذي اسماه « فهرست العلماء » أو « الفهرست في أخبار الادباء » كان ينظر اليه من زاوية معجم التراجم والذي أطلق عليه « فهرست العلوم » أو « فوز العلوم » نظر إليه من زاوية دائرة المعارف أو الموسوعة .

ويكشف ابن النديم في مقدمته المختصرة جداً عن طبيعة عمله وتاريخ الاقفال فيه وحدوده الزمنية والجغرافية حيث يقول « هذا فهرست كتب جميع الامم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع الى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة » ويجب أن يفهم تاريخ ٣٧٧هـ على أنه تاريخ الاقفال وليس تاريخ الانتهاء من كتابة الفهرست .

بلغ عدد الكتب التي حصرها ابن النديم نحو ثمانية آلاف وخمسمائة كتاب (٨٣٦٠ عنواناً على وجه الدقة) أما عدد المؤلفين فيدور حول ألفي مؤلف بشتى أنواع التأليف (٢٢٣٨ على وجه اليقين) .

ويدخل في عداد الكتب : الكتاب ذو المائة جزء أو مجلد والرسالة ذات العشر ورقات ، والمقالة ذات الخمس ورقات فأقل ، كما يدخل في عداد المؤلفين من قال قصيدة شعر واحدة أو من ألف خمسمائة عنوان ، من بينها عنوان واحد في عشرين الف ورقة ، وهو اقصى توريق وصل اليه كتاب في الفهرست ، ويدخل في هذا العدد للمؤلفين من جوَّد في نسخ القرآن أو من ترجم كتاباً ، كما يجب التنويه بداية إلى أن من بين المؤلفين المحصورين في الفهرست من لم يذكر له كتب سواء لأن ابن النديم لم يصل اليها أو لأنه لم يؤلف أصلاً بل روى عنه أو اخذ عنه على ماسجل الفهرست ، وهناك على الجانب الآخر كتب كثيرة سجلها الفهرست بدون مؤلف أو لمؤلفين مجهولين .

كان من بين المؤلفين المحصورين في الفهرست اثنتان وعشرون مؤلفة أنثى بنسبة ١٪ فقط مما يكشف عن أن مجال التأليف عند المسلمين كان مجال ذكور بالدرجة الأولى .

ولو أننا استبعدنا العصر الأموي ، لأنه في نظر علماء الببليومتريقا التاريخية كان عصر جدب واهمال فكريين ، ووزعنا الانتاج الفكري الذي حصره ابن النديم على قرنين ونصف من الزمان لكان معنى هذا ان متوسط عدد العناوين الجديدة التي كانت تنشر سنوياً في الدولة الاسلامية آنذاك كان يدور حول ثلاثين كتاباً في السنة ، فإذا أضفنا إلى ذلك نسبة ٢٠٪ لم يستطع ابن النديم حصرها وأفلتت من شبكة فهرسته لارتفع معدل إنتاج الكتب في الامبراطورية الإسلامية إلى نحو أربعين عنواناً في العام الواحد .

وللأسف لايساعدنا الفهرست على دراسة جغرافية الوراقة (النشر) في الدولة الاسلامية في القرون الأربعة الاولى للهجرة فابن النديم لم يكن يهتم بذكر مكان النسخ أو الناسخ الورّاق ، فقد وقر في ذهنه ـ وعن حق ـ أن سوق الوراقة في العالم الاسلامي كانت سوقاً مفتوحة والمؤلف ينتقل من مكان إلى مكان دون حواجز أو حدود سياسية جغرافية والاعتماد على جنسيات المؤلفين أو أماكن ولادتهم لدراسة جغرافية الوراقة فيه مخاطر جمة ومؤشراته لادلالة لها .

وفي مجال المترجمات يمكننا على وجه التقريب وبعد عمليات احصائية تحليلية أن نخرج بنتائج حاسمة في هذا الشأن فقد دارت الكتب المترجمة (النقولات) حول ٦٣٢ كتاباً بنسبة تقترب من ٧,٥٥٪ وسوف نعالج فيما بعد توزيع الكتب المترجمة على الموضوعات وعلى اللغات .

ولقد سرد علينا ابن النديم اسماء المترجمين الذين توفروا على نقل الفكر الأجنبي الى اللغة العربية في مواضع متفرقة من الفهرست وقد دار عددهم حول ٦٦ مترجماً (ناقلاً) منهم ٤٥ مترجماً ينقلون من عدة لغات (فارسي ـ يوناني ـ سوروياني ـ مصري قديم) . و١٦ ينقلون فقط من الفارسي الى العربي ، بينما خمس ينقلون من الهندية الى العربية . ومن الطريف أن يكون النقل كذلك من العربية الى الفارسية ، وتصل النسبة المئوية للمترجمين إلى المجموع الكلي للمؤلفين إلى نحو٣٪ ومن بين النقلة من كان مؤلفاً كذلك .

ويمكننا توزيع الانتاج الفكري الذي حصره ابن النديم على الموضوعات التي ارتضاها المؤلف تصنيفاً لمفرداته في الفهرست : (٣٥)

المقالة الأولى ـ الفن الأول

الموضوع	عـدد المؤلفيـن	عـدد الكتـب
كتاب المصاحف فقط	٢١	—
كتاب المصاحف وغيرها	٣٥ من بينهم انثى واحدة	—
مجلدو المصاحف	١٢	—

المقالة الاولى ـ الفن الثاني

الدين اليهودي	١	٣٧
الدين المسيحي	٨	٨

المقالة الأولى ـ الفن الثالث

جماع القرآن	٧	—
القراء	٧	—
الرواة	٤٥	—
قراء الشواذ	٢٣	—
القراءات	٣٣	١٠١
تفسير القرآن	٤٤	٤٤
معاني القرآن	٢٤	٢٤
غريب القرآن	١٣	١٣
لغات القرآن	٦	٦
لامات القرآن	٤	٤
الوقف والابتداء	١٢	١٢
اختلاف المصاحف	٧	٧
وقف التمام	٦	٦
اتفاق الالفاظ والمعاني في القرآن	٢	٢
متشابه القرآن	١٠	١٠
هجاء المصحف	٤	٤
مقطوع القرآن وموصوله	٤	٤
أجزاء القرآن	٦	٦
فضائل القرآن	١٣	١٣
عدد آي القرآن	١٩	١٩
ناسخ القرآن ومنسوخه	١٨	١٨
الهاءات ورجوعها	١	١
نزول القرآن	٢	٢
أحكام القرآن	١١	١١
معاني شتى من القرآن	١٨	١٩

المقالة الثانية (اللغة والنحو)

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
اللغة والنحو على المذهب البصري (فن ١)	١٠٣ من بينهم ثلاث اناث	٥٣٧
اللغة والنحو على المذهب الكوفي (فن ٢)	٣٨	٢٤٦
اللغة والنحو على المذهبين (فن ٣)	٧٣	٣٤٤

المقالة الثالثة (تاريخ وجغرافيا وتراجم)

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
تاريخ وتراجم وجغرافيا عامة (فن ١)	١١٦	٨١٠
تراجم متخصصة : السلطة (فن ٢)	١٤٠	٤٨١
تراجم متخصصة : ندماء وأدباء (فن ٣)	٦٢	٤٣٣

المقالة الرابعة (الشعر والشعراء)

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
الشعر الجاهلي والاسلامي والأموي (فن ١)	٩٤ بينهم إمرأتان	٩٤
الشعر العباسي (فن ٢)	٤٨٥ بينهم ١٧ أنثى	٦٠٤

المقالة الخامسة (علم الكلام : علم التوحيد)

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
المعتزلة والمرجئة (فن ١)	٣٦	٦١٨
الشيعة (فن ٢)	٢١	٨٤
السنة (فن ٣)	٢١	٤٦
الخوارج (فن ٤)	١٣	٢٢
التصوف والزهد (فن ٥)	٥٧	٤٢٧

المقالة السادسة (الفقه)

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
الفقه المالكي (فن ١)	٢٥	٣٢
الفقه الحنفي (فن ٢)	٣١	١٦٥
الفقه الشافعي (فن ٣)	٤٥	١٧٠
فقه داود (فن ٤)	١٠	١٨٧
فقه الشيعة (فن ٥)	٧١	١٦٢

فقه السنة (فن ٦)	٦٤	٢١٨
فقه الطبري (فن ٧)	١٢	٦٤
فقه الشراة (فن ٨)	٤	٣٢

المقالة السابعة (الفلسفة والمنطق والعلوم البحتة والتطبيقية)

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
فلسفة يونانية (فن ١)	٣٦	١١٨
فلسفة إسلامية (فن ١)	١٦	٣١٣
الرياضيات والفلك (فن ٢)	٤٤	١٣١
الهدسة الميكانيكية (فن ٢)	٩٠ بينهم انثى واحدة	٣٤٥
الطـــب (فن ٣)	٧٨	٤٢٦

المقالة الثامنة (الفنون والترفيه والتدبير)

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
قصص وأساطير (فن ١)	١٢	١٨٨
سحر وتعزيم (فن ٢)	١٤	٢٣
الشعوذة والطلسمة (فن ٢)	٦	٩
خرافات (فن ٣)	—	٦٦
التفاؤل والتشاؤم والتطير (فن ٣)	٢٢	٢٢
الفروسية والحرب والسلاح (فن ٣)	٥	١٢
الصيد بالجوارح (فن ٣)	٢	١٦
الحكم والمواعظ والأمثال (فن ٣)	٣٠	٤٤
تفسير الأحلام (فن ٣)	١٠	١٠
العطور (فن ٣)	٧	٩
الطبخ (فن ٣)	١٠	١٢
السموم والترياق (فن ٣)	٨	٩
التعاويذ والرقى (فن ٣)	٢	٨
المعادن وموضوعات أخرى (فن ٣)	٤	١٠

المقالة التاسعة (الديانات الوضعية)

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
المانوية (فن ١)	١	٨٢

المقالة العاشرة (الكيمياء)

الموضوع	عدد المؤلفين	عدد الكتب
الكيمياء	٥٤	٣٧٠

ومن الطبيعي في هذا الحصر ان تظفر علوم الدين الاسلامي بالنصيب الأكبر حيث تصل نسبتها العامة الى ٥٣ , ٣٠٪ وداخل علوم الدين الاسلامي يأتي علم التوحيد على رأسها يليه مباحث الفقه بشطريه العبادات والمعاملات ثم مباحث القرآن ، وتأتي الجغرافيا والتاريخ والتراجم في المرتبة الثانية من هذا الحصر وتصل نسبتها الى ٦٢ , ٢٠٪ وتقترب منها وبنفس النسبة العلوم البحتة والتطبيقية . وفي المرتبة الرابعة تأتي علوم اللغة والنحو وتصل نسبتها الى ٤٨ , ١٣٪ ، ويأتي الشعر العربي في المرتبة الخامسة ونسبته ٣٤ , ٨٪ أما الفنون والترفيه فتأتي في المرتبة السادسة وتبلغ نسبتها ٨٦ , ٤٪ ، والديانات الوضعية تأتي في المرتبة السابعة وتصل نسبتها الى ٩٨ , ٠٪ اي أقل من واحد في المائة ، وتأتي علوم الدين اليهودي في المرتبة الثامنة وتصل نسبتها الى ٤٤ , ٠٪ أي أقل من نصف في المائة ، وأقل الانتاج في الدين المسيحي وتصل نسبته الى أقل من واحد من عشرة في المائة .

وهناك مؤلفون مكثرون بعضهم يربو إنتاجه في ذلك الحصر على مائتي كتاب يأتي على رأسهم الكندي (أبو يوسف يعقوب ابن اسحق) الذي سجل له الفهرست ٢٣٨ كتاباً وجابر بن حيان الذي حصر ابن النديم له ٢٣٣ كتاباً والمدائني (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن ابي سيف) الذي سجل له الفهرست ٢٤٠ عنواناً .

ولما كانت الترجمة من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية وأحياناً من العربية الى الفارسية تمثل ظاهرة فذة في الانتاج الفكري المنشور في تلك الحقبة التي يغطيها الفهرست فإن وقفة أمام الاتجاهات الموضوعية واللغوية لها تصبح أساسية في هذه الدراسة الببليومترية :

الموضوع	الانتاج الكلي	المترجمات	اللغة	النسبة المئوية
الفلسفة	٤٣١	١١٨	اليونانية	٪٢٧,٣٨
الرياضيات والفلك والهندسة الميكانيكية	٤٦٧	١١٥	اليونانية	٪٢٤,١٥
		١٦	الهندية	٪٣,٣٦
		١٥٧	اليونانية والقبطية	٪٣٦,٨٥
الطب	٤٢٦	١٣	الهندية والفارسية	٪٣,٠٥
		٢٠	الفارسية	٪١٠,٦٣
قصص وأساطير	١٨٨	١٧	الهندية	٪٩,٠٤
		١١	الرومية (اللاتينية)	٪٥,٨٥
شعوذة وسحر	٩	٦	الهندية والفارسية والرومية	٪٦٦,٦٧
المانوية	٨٢	٨٢	الفارسية والهندية	٪١٠٠,٠٠
الجنس (الباه)	١٣	١٠	الفارسية والهندية والرومية	٪٨,٨٤
التفاؤل والتشاؤم والتطير	٢٢	١٦	الفارسية والهندية والرومية	٪٧٢,٧٢
الحكم والمواعظ والأمثال	٤٤	٣٠	الفارسية والهندية والرومية	٪٦٨,١٨
تفسير الاحلام	١٠	٤	الفارسية والرومية	٪٤٠,٠٠
السموم والترياق	٩	٢	الهندية	٪٢٢,٢٢
المجموع	٢٠٨٠	٦٣٢	—	٪٣٠,٣٨

والمتأمل في اتجاهات التأليف في تلك الحقبة التي يغطيها الفهرست يدرك تماماً أن الاتجاه كان نحو التخصص الموضوعي العميق ، حقاً لقد وجد المؤلف الموسوعي ولكنه كان موسوعياً في معلوماته متخصصاً في انتاجه ، ولقد قلت الكتب الموسوعية التي تتناول اكثر من موضوع بدليل أنها لم تزد في الفهرست على مائتي كتاب ، وكان التركيز في الانتاج الفكري في تلك الحقبة على موضوعات ضيقة جداً تعالج معالجة رأسية ، حتى التأليف القصصي نفسه نحا هذا النحو التخصصي ، فهناك قصص العشق ، وهناك قصص الحب وهناك قصص عشاق الجن من الانس والانس من الجن ، وهناك قصص البحر وقصص المغامرات ، هناك قصص عن الفارسية والهندية واللاتينية ، ولتصوير تلك الحقيقة نأخذ عينة من الكتب الموجودة في الفهرست في مجالات شتى :

كتاب العارية لمحمد بن الحسن ـ كتاب في المكعبات للأنطاكي ـ كتاب آلة الزمر البوقي دون مؤلف ـ كتاب احتباس الطمث لروفس ترجمة حنين ـ كتاب من جمع بين أختين ومن تزوج ابنة امرأته

وجمع أكثر من أربع ومن تزوج مجوسية للمدائني ـ كتاب عرق النسا لفيلفريوس ـ كتاب الحصاة لفيلفريوس .

ومن الجدير بالذكر أن عناوين الكتب حتى القرن الرابع الهجري على الأقل من واقع الفهرست كانت تعبر عن رؤوس موضوعات أكثر منها اسماء شخصية للكتب ولذلك نجد مئات من الكتب أحياناً تشترك في ذات العنوان ، وكان التمييز بينها يتم عن طريق المؤلف وحده ومن أمثلة ذلك : كتاب غريب الحديث ـ كتاب غريب القرآن ـ كتاب النوادر ـ كتاب المصادر . والعناوين المسجوعة التي تحاول ألا تتكرر كانت نادرة في تلك الحقبة من التأليف العربي بحيث يمكن القول أنها في كل كتاب الفهرست لاتزيد على عشرين عنواناً بنسبة ٤ , ٠٪ وهو الأمر الذي تفشى بعد عصر النكسة العربية وانحطاط التأليف في القرن السابع الهجري ومابعده . ومن ثم نستنتج أن العنوان المباشر الذي ينطبق على موضوع الكتاب كان هو السائد في تلك الحقبة من حقب التأليف الاسلامي حتى ولو طال العنوان طولاً غير عادي ومن أمثلة ذلك :

● كتاب خالد بن عبد الله العشري ويوسف بن عمر وموت هشام وولاية الوليد بن يزيد الذي ألفه أبو مخنف .

● رسالة كذبتها ومعناه أنه روى في أدب النفوس خبر فاطمة وعلي رضى الله عنهما وقد شكوا الى النبي (ﷺ) الخدمة فقال كذبتما ، والذي ألفه الدولابي .

وكان من النادر أن يكون للكتاب عنوان فرعي يفسر العنوان الرئيسي أو يحدده وعندما يوجد مثل هذا العنوان الفرعي في كتاب الفهرست فهناك من الشواهد ما يشير إلى أن ابن النديم هو الذي أضافه كنوع من التعليق الموجز على الكتاب ومثل ذلك :

● كتاب أبواب الخلفاء : ومعناه من كان الخلفاء يأنسون به ويستسرونه ويستعقلونه ويستعضدونه ، لابن أبي طيفور .

● كتاب العبارة : عن أسماء الله تعالى للمبرد .

● كتاب ترياق الفكر : فيما عاب به أبا تمام لقدامة بن جعفر .

وعرفت الكتب في تلك الفترة العنوان الرسمي الذي يضعه المؤلف ؛ والعنوان الشعبي الذي يشتهر به بين الناس لسبب أو لآخر ومن الأمثلة الدالة :

● كتاب الديباج عرف باسم التاج لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي .

● كتاب انتصاف العجم من العرب ويعرف بالتسوية لسعيد بن حمير .

ويلاحظ على مؤلفات تلك الحقبة أنها كانت في الاعم الاغلب تأليفاً خالصاً إذ تقل فيه الشروح

والاختصارات والاختيارات والتجريدات وعندما تظهر كلمة « مختصر » في عناوين بعض الكتب فهي لاتعني غالباً معنى اختصار كتاب لكتاب ولكنها تعني في العادة أن المؤلف نفسه وضع الكتاب مختصراً أو عالج الموضوع باختصار ليكون في متناول القاريء العادي غير المتخصص مثال ذلك : كتاب مختصر الصلاة ، كتاب مختصر الحج ، كتاب مختصر في النحو ، إذ أن ظاهرة الاجترار الفكري لم تظهر كظاهرة إلا في عصر الانحطاط الفكري في القرن السابع الهجري ومابعده .

ولقد ران على التأليف الاسلامي في تلك الحقبة التأليف الفردي ، والترجمة الفردية ، والأمثلة على التأليف الجماعي المشترك أو الترجمة المشتركة قليلة جداً بل ونادرة في كتاب الفهرست ومن بينها :

- كتاب اللغات في القرآن لجماعة من العلماء .
- كتاب المصارعة لأحمد وابراهيم بني المدبر
- كتاب السبعين مقالة لمؤلفها أو ريباسيوس نقلها حنين وعيسى بن يحيى .

وإلى جانب دوافع التأليف التقليدية لدى المؤلفين كشف الفهرست عن تأليف الكتب لشخص مرموق بقصد التكسب من الحكام وعلية القوم وتحليل شيء مالهم أو إرشادهم لحل مشكلة صحية أو نفسية أو اجتماعية ، كما كان من دوافع التأليف التدريس أي أن يكون الكتاب مقرراً على التلاميذ ، ومن الأمثلة على ذلك :

- كتاب النوادر ألفه ليحيى بن جعفر .
- كتاب مختصر نحو للمتعلمين .
- كتاب المولودين لثمانية أشهر عمله حنين لأم ولد المتوكل .

ولقد ترددت في الفهرست ثلاثة اشكال من الانتاج الفكري هي : كتاب ـ رسالة ـ مقالة ـ وكان ابن النديم واعياً تماماً للفروق الموجودة بينها رغم أنه لم يسجل تلك الفروق صراحة في كتابه وانما بقيت في وجدانه ، فهو يقول تحت جابر بن حيان « ويتلو ذلك عشرة كتب مضافاً إلى السبعين » ؛ « وبعد ذلك عشر مقالات تتلو هذه الكتب » ؛ قال جابر في فهرسته : الفت بعد هذه الكتب ثلاثين رسالة » .

وباستقراء المواضع والظروف الببليوجرافية التي استخدم فيها ابن النديم تلك المصطلحات الثلاثة نرجح أنه استخدمها ليصف بها كمية المادة العلمية في العمل وليست طريقة المعالجة للمادة كما قد يظن فالكتاب أغزر في مادته العلمية . . تليه الرسالة التي هي اقل منه في المادة العلمية ثم المقالة التي هي اصغر الاشكال في المادة العلمية وإذا كان لنا ان نقارن هذه الاشكال الثلاث بنظائر لها في دنيا المطبوعات لكانت مقابلة للكتاب والكتيب والنشرة على التوالي Book ; Booklet ; Pamphlet

وهذا الاستنتاج هو مجرد استنتاج شخصي بحت علماً بأن الفهرست استخدم مصطلح كتاب في بعض الاحيان بمعنى الباب أو الفصل أحياناً.

ولقد ميز ابن النديم في الفهرست بين النسخات (الاصدارات) المختلفة للكتاب الواحد والتي تتضمن تغييرات في المادة العلمية بالحذف والاضافة والتنقيح والتهذيب وهو مانسميه في أيامنا بالطبعات ، وكان ابن النديم يعبر عن الاصدارة بمصطلح « نسخة » بفتح النون وتسكين السين وفتح الخاء ، أو« عرضة »والأول أوسع انتشاراً في الفهرست ، وكان في بعض الاحيان يؤكد على أنه لم تصدر من الكتاب الا نسخة واحدة فقط بإضافة مصطلح مفرد ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك :

- كتاب الأرض (جابر بن حيان) نسخة أولى وثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة .
- كتاب المواليد (أبو سهيل الفضل بن نوبخت) ، مفرد .
- كتاب معاني القرآن (المفضل بن سلمة) ، مفرد .
- كتاب التاريخ (أبو عبد الله بن أبي خيثمة) ولم يخرج بأسره أو لم يتمه .
- أدب الكتاب (ابن دريد) لم يجرده عن المسودة .

أما عن المسئولية الفكرية أو أنواع المؤلفات التي حصرها ابن النديم في كتابه فقد عبرعنها الببليوجرافي الفذ بنحو ثلاثين مصطلحاً أو طريقة تأليف لم تتنوع اعتباطاً بل كانت هناك فروق جوهرية بينها في معظم الاحيان وفروق طفيفة في أحيان قليلة ، ونستعرض هنا هذه الطرق ونمثل لها من واقع الفهرست باعتبارها طرائق المسئولية الفكرية التي سيطرت على ميدان الانتاج الفكري في الامبراطورية الاسلامية في القرون الأربعة الأولى للهجرة :[٣٦] .

١ ـ التأليف .
٢ ـ التصنيف .
٣ ـ الرواية .
٤ ـ الصنعة .
٥ ـ العمل .
٦ ـ الاختيار .
٧ ـ الاختصار .
٨ ـ النقض ـ الرد .
٩ ـ الشرح .

١٠ ـ التعاطي .
١١ ـ المجالس .
١٢ ـ المحاسبات .
١٣ ـ المناظرات ـ المداعبات .
١٤ ـ الألحاق ـ التتمة ـ الوصل ـ الزيادة .
١٥ ـ النحلة والانتحال .
١٦ ـ الحفظ .
١٧ ـ السماع .
١٨ ـ القراءة .
١٩ ـ الأخذ .
٢٠ ـ التفسير .
٢١ ـ النقل ـ الترجمة .
٢٢ ـ الاصلاح .
٢٣ ـ الحكاية .
٢٤ ـ المكاتبات ـ الترسلات .
٢٥ ـ الاستدراك .
٢٦ ـ التبصرة ـ الحاشية ـ التبصر .
٢٧ ـ الانتزاعات .
٢٨ ـ الأمالي .
٢٩ ـ الجمع .
٣٠ ـ التجريد ـ التجريدات .

إن التحليل المتأني لمضمون « الفهرست » يكشف عن أن التأليف والتصنيف والصنعة والعمل هو أن يقوم المؤلف بإعداد مادته العلمية وصياغتها في قالب قابل للتداول والتناول بين المستفيدين ، ونحن نستشف من ثنايا مضمون الفهرست أن التأليف ليس من الضروري أن يكون مكتوبا ومسجلاً ويمكن أن يكون شفويا ولذلك لم يفرط أبن النديم في إستخدام هذا المصطلح ربما لهذا السبب وحده . يقول أبن النديم تحت ابى تمام « لم يزل شعره غير مؤلف يكون نحو مائتي ورقة إلى أيام الصولى فإنه عمله على الحروف نحو ثلاثمائة ورقة » . والتأليف عند أبن النديم ارقى درجة من التصنيف والصنعة والعمل . والتصنيف يعتمد أكثر على مصادر سابقة يأخذ منها الكاتب ولذلك

يأتي من حيث الجهد الفكري في مرتبة تالية للتأليف ، يقول الفهرست في هذا الصدد : « ولم نر لحماد كتابا وانما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده » . أما الصنعة فهي أقرب إلى الإعداد ومن ثم تأتي في المرتبة الثالثة من مراتب الجهد الذهني والنتاج الفكري يقول الفهرست « اجتمع على صنعة كتاب سيبويه إثنان وأربعون إنسانا » أما **العمل** فهو إعداد مادة الغير العلمية ويغلب عليها أن تكون لشخص واحد فالعمل إذن قد يكون اضيق نطاقاً من الصنعة ومن ثم فهو أدنى منها مرتبة من حيث المجهود الذهني .

أما عن **الانتحال** فقد كشف الفهرست وباستفاضة عنه إذ كان بعض الأشخاص في الفترة التي يغطيها يسطون على كتب الآخرين وينسبونها إلى أنفسهم . كما أن آخرين كانوا يؤلفون الكتب ولسبب أو لآخر ينسبونها إلى غيرهم ، كذلك أدت الظروف السيئة للضبط البيلوجرافي للانتاج الفكري إلى الخلط بين الكتب والمؤلفين عن غير قصد . والذي يحلل محتويات الفهرست تحليلاً متأنياً يجد النحلة والانتحال يتخذ شكل الظاهرة التي تدير العقول وقد تهدم شخصيات مؤلفة مستقرة في وجدان التاريخ الإسلامي ، يقول أبن النديم : « قال جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين إن هذا الرجل يعني جابرا بن حيان لا أصل له ولا حقيقة وبعضهم قال إنه ماصنف ، وأن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه اياها » ورغم أن أبن النديم يفند هذا الزعم إلا أنه يدير الرأس فعلاً .

ويقول أبن النديم في موضع آخر في الفن الثاني من المقالة السابعة أن من سعادات حنين بن اسحق أن مانقله حبيش بن الحسن الاعسم وعيسى بن يحيي وغيرهما إلى العربي ينحل إلى حنين » . ويقول عن سعيد بن حميد « كاتب شاعر مترسل ، عذب الالفاظ ، مقدم في صناعته جيد التناول للسرقة كثير الاغارة » . وعن عبدان يقول « أكثر الجماعة كتبا وتصنيفا وكل من عمل كتابا نحله اياه » .

والرواية في الفهرست كتاب لم يسجل في حياة صاحبه بل نقله عنه شفاهة راوية ، وهذا الراوية في حقيقة الأمر هو باحث أو عالم مدقق وليس بالمعنى السريع لتلك الكلمة والراوية قد يتخصص في كتاب واحد يرويه أو في كل كتب مؤلف بالذات ، وأحيانا يروي في موضوع لعدد من المؤلفين ، والرواية في حقيقة الأمر هي تأليف خالص يعتمد على منهج علمي من جانب المؤلف الأصلي والراوية على السواء . وتتسع رقعة الرواية في الأنتاج الفكري الإسلامي في القرون الأولى للهجرة بسبب عدم انتشار الكتابة والتدوين على نطاق واسع قبل ختام القرن الثاني ومطلع القرن الثالث للهجرة . وينظر البعض إلى القرنين الثالث والرابع على أنهما قرنا تدوين الروايات في جل العلوم الإسلامية وإن كان التدوين قد بدأ على استحياء في نهاية القرن الأول ومطلع الثاني وخاصة في

التاريخ والأنساب . ولقد غص كتاب الفهرست بالأمثلة الدالة على الرواية بمفاهيمها المختلفة .

والنقل في تلك الفترة هو ما نعنيه اليوم بالترجمة من لغة إلى لغة وكان المترجمون يطلق عليهم مصطلح « النقلة » . هذا المصطلح كان هو السائد للتعبير عن هذه العملية الفكرية آنذاك . وإن ظهر مصطلح « الترجمة » في الفهرست فقد قصد به عدة معان مختلفة منها كتابة السيرة والتفسير والتقديم والوصف والدليل أو المفتاح وإعادة الصياغة أو اقتباس الأفكار دون النص .

والتجريد غير **الاختصار** من حيث أن التجريد يعمد إلى حذف الأسانيد والحواشي من النص الأصلي ، بينما الأختصار هو اصطفاء الأفكار الرئيسية في النص وربما استخدام صياغة جديدة في الأسلوب وطريقة العرض وترك التفاصيل .

والمحاسبات في الفهرست تعني التعليقات أو الملاحظات الشخصية . يقول إبن النديم تحت أبي بكر محمد بن القاسم « وله محاسبات لغة ونحو وأخبار وسمعها منه جماعة » .

أما **القراءة والسماع والحفظ** فتنصرف إلى طرق من طرق التعليم والتلقي أو ما نسميه في أيامنا هذه بالاتصال الفكري ، فالقراءة هي دراسة كتاب معين أو موضوع بالذات عن طريق قراءة النصوص أو المتون أمام الشيخ أو الأستاذ ، بينما السماع هو درس كتاب أو موضوع يتلى على الطالب عن طريق أستاذ ، بينما الحفظ استظهار المعلومات واختزانها في الذاكرة دون تدوينها . يقول أبن النديم « وكانت كتب نصران لابن السكيت حفظاً وللطوسي سماعا » وتحت المراغي يقول « وكان عالما دينا قراءً على الزجاج » .

والمجالس أو المجالسات في الفترة المدروسة تعرف في أيامنا باسم « مجالس العلم » حيث يجلس العالم ويتحدث حديثا علميا إلى الآخرين بعضهم يسمع فقط وبعضهم يدون مايسمعه أو يلخصه ، وغالبا ماينصرف المجلس إلى موضوع محدد ، وقد يمتد النقاش في الموضوع على أكثر من مجلس (جلسة) . وقد تطورت المجالس ليخرج من بطنها المصطلح الحديث (المحاضرات) .

أما **الاصلاح** في الفهرست فيقصد به مراجعة المادة العلمية وتصحيح مابها من أخطاء سواء في المعلومات والبيانات أو في الأسلوب وقواعد اللغة وعادة مايكون المصحح هذا أعلى مرتبة من المؤلف أو الناقل وأكثر رسوخا في العلم . ورغم شيوع الاصلاح في الكتب العادية إلا أنه أكثر شيوعا في الكتب المنقولة على وجه الخصوص . ومن الأمثلة الدالة على الاصلاح : كتاب النوادر لأبي شنبل العقيلي : رأيته بخط عتيق بإصلاح أبي عمر الزاهد ؛ كتاب الحقن نقل اسطاث وإصلاح حنين .

والانتزاعات في فهرست أبن النديم تقابل في مصطلحاتنا الحالية الفصلات أو المستلات أو المستخرجات Separates , Offprints أي عبارة عن فصول أو أبواب أو قطع من المعلومات

تستل وتنشر مستقلة من عمل أكبر يقول أبن النديم عن كتاب كليلة ودمنة « ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات » .

والتبصرة أو التبصر عبارة عن حاشية أو تقرير على كتاب آخر ، ولم يرد هذا المصطلح في الفهرست إلا مرة مما يعني أن هذا النوع من الأنتاج الفكري لم يكن شائعا في الفترة التي غطاها أبن النديم ، يقول المؤلف تحت أبن درستويه « وله رد على المفضل أبن سلمة وتبصر كتاب العين » .

أما التعاطي فهو أسلوب تأليف ومنهج يعني تقليد كتاب آخر والسير على نهجه وكثيرا ما تردد في الفهرست عن مؤلف معين أنه يتعاطى مذهب فلان فيما يعمل من الكتب .

وهكذا أستطاع أبن النديم في الفهرست أن يمدنا بطرق مختلفة في إعداد المادة العلمية التي نشرت في العالم الإسلامي في القرون الأربعة الأولى للهجرة وبلغت هذه الطرق نحو ثلاثين طريقة عرضناها جملة وتعرضنا لبعضها بشيء من التفصيل في السطور السابقة .

(٣)
تنظيم الفهرست ومنهج أبن النديم في تأليفه

بصرف النظر عن التصنيف المبدئي للفهرست والذي لم يصلنا فإن الخطة الحالية التي عليها الكتاب تقسم المادة العلمية فيه إلى عشر مقالات ، وكل مقالة إلى فنون وهذه الفنون لا تستوي عدداً تحت كل مقالة ، بل إن المقالة العاشرة لم تقسم ولقد بلغ مجموع الفنون إذا اعتبرنا المقالة العاشرة فنا واحداً ؛ ثلاثة وثلاثين فنا .

ومن المؤكد أنه كان هناك منطق وراء ذلك التقسيم على الأقل بالنسبة لفكر ذلك العصر فالمقالات الست الأولى تمثل الفكر العربي الإسلامي البحت ؛ بينما المقالات الأربع الأخيرة تمثل الفكر الأجنبي . ولقد كان أبن النديم واعيا تماماً عندما عالج الديانات السماوية في المقالة الأولى وعالج الديانات الوضعية في المقالة التاسعة حتى لا تختلط تلك الاعتقادات الوضعية بالديانات السماوية .

تدور كل مقالة حول مجال محدد متجانس الموضوعات وإن لم يضع أسما جامعاً لكل مقالة يدل على محتوياتها . والمقالة الأولى وحدها هي التي شذت عن هذا الاتجاه فقد خصص الفن الأول فيها لنشأة اللغة والكتابة وتطورها كمدخل طبيعي إلى تصنيفه . والفن الثاني في تلك المقالة خصصها للكتب المقدسة الخاصة بالدين اليهودي والدين المسيحي . أما الفن الثالث فهو خصص للقرآن الكريم وعلومه .

والمقالة الثانية تدور حول اللغة العربية وعلومها وقسمها إلى ثلاثة فنون عالج في فنها الأول اللغة

على مذهب البصريين وفي فنها الثاني اللغة على مذهب الكوفيين وفي الفن الثالث اللغة على المذهبين .

والمقالة الثالثة تعالج الجغرافيا والتاريخ والتراجم وتقع هي الأخرى في ثلاثة فنون ، خصص الأول للنسابين والمؤرخين والجغرافيين . وانصرف الثاني إلى السلطة التنفيذية : الخلفاء والحكام والدواوين والخراج ، وجاء الفن الثالث عن الادباء والندماء والمغنين والترفيهيين والمضحكين .

وخصصت المقالة الرابعة للشعر والشعراء وانقسمت إلى فنين خصص أحدهما للشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي والثاني للشعر في العصر العباسي حتى وقت إبن النديم .

وعالج الفهرست في المقالة الخامسة علم التوحيد (علم الكلام) ووزعها على خمسة فنون الأول للمعتزلة والثاني للشيعة والثالث للسنة والرابع للخوارج والخامس للمتصوفة .

وتطرق ابن النديم في المقالة السادسة للفقة والحديث وقسمها إلى ثمانية فنون واضحة المعالم ١ ـ فقة مالك ٢ ـ فقي أبي حنيفة ٣ ـ فقة الشافعي ٤ ـ فقة داود ٥ ـ فقة الشيعة ٦ ـ فقة الحديث ٧ ـ فقة الطبري ٨ ـ فقة الشراة (الخوارج) .

أما المقالة السابعة فيمكننا القول بأنها تدور حول العلوم البحتة والتطبيقية بفنونها الثلاثة حيث خصص الأول للفلسفة الطبيعية والمنطق والثاني للهندسة والرياضيات والفلك والثالث للطب .

وعالجت المقالة الثامنة مجال الترفيه والسحر في ثلاثة فنون أولها عن الأسمار والقصص والثاني في السحر والشعوذة والثالث في موضوعات متفرقة مثل الأساطير والخرافات والجنس والفال .

والمقالة التاسعة في الديانات والمعتقدات الوضعية وقسمت إلى فنين الأول في الثنوية والصابئة وفروعها والثاني في ديانات الهند والصين .

أما المقالة العاشرة والأخيرة فهي فن واحد أو بالأحرى لم تقسم وتدور حول الكيمياء أو الصنعة . ولعل افراد مقالة بأكملها لهذا العلم يدل على علو شأنه وإهتمام الناس به في تلك الحقبة أكثر من غيره .

في داخل كل فن يعالج أبن النديم العلم أو الموضوع الذي يدور فيه الفن نشأته وتطوره ومحتوياته ومدلولاته وأول من ألف فيه ثم يسرد المؤلفين في هذا التخصص وتحت كل منهم يسرد كتبه في العلم ، وإذا كان المؤلف يكتب في أكثر من تخصص وزع انتاجه على التخصصات المختلفة ؛ أي أن المؤلف يتكرر تحت أكثر من تخصص بينما الكتب لاتكرر .

لم يذكر أبن النديم صراحة كيف رتب المؤلفين داخل كل فن ولكن الدراسة المتأنية تكشف عن أنه كان يجنح إلى ترتيبهم زمنيا وحسب اقدارهم ومنزلتهم في العلم . وقد ذكر منهجة في ترتيب المؤلفين

عرضا في بعض المواضع ؛ وتحت المؤلف رتبت كتبه حسب أهميتها واسبقية نشرها .

هذا على جانب التنظيم العام للفهرست أو مايسمى بخط التنظيم الأول وجانب ترتيب المؤلفين وترتيب المفردات تحت كل مؤلف فيما يعرف بخط التنظيم الثاني والثالث . ومن المؤكد أن هناك منطقاً وراء تنظيم المادة العلمية بهذا الشكل سواء في خطها الأول أو الثاني أو الثالث .

لقد اتبع أبن النديم المنهج العلمي في جمع المادة العلمية لكتابه ، إذ استمد مادته من ثلاثة روافد اساسية هي : ١ ـ القراءة ٢ ـ المشاهدة ٣ ـ السماع . وداخل كل رافد استعمل عقله في قبول أو رفض المادة حتى ولو اضطر إلى إثباتها في كتابه ، ولاتخلو فقرة من فقرات الكتاب من اسناد ، داخل تلك الروافد ، وسوف استعرض هنا من الفهرست مايمثل الروافد الأساسية في جمع المادة العلمية أو مايمثل عقلية أبن النديم في وزن كل فكرة أو رأي أو واقعة في حدود ثقافة ذلك العصر .

فهو يجمع هذه الروافد جميعا في المقالة العاشرة وفي عبارة موجزة عندما يقول : « اسماء كتب ألفها الحكماء **ورأيناها** وعرفنا **الثقة** أنه رآها **وذكرها** علماء الصنعة في كتبهم » .

ويقول أبن النديم تحت داود في الفن الرابع من المقالة السادسة قال محمد بن اسحق : نسخت هذه الكتب من جزء عتيق بخط محمد المروزي وأحسب هذا الرجل على مذهب داود إلا أنه غير معروف . وتحت أخبار الخليل بن أحمد : قرأت بخط أبي الفتح بن النحوي صاحب بني الفرات وكان **صدوقاً منقراً بحاثا** . وفي الحديث على الترك وماجانسهم بالمقالة الأولى في الفن الأول « قال لي من أثق بحكايته » .

وتحت مئات من الكتب التي سجلها أبن النديم نجد عبارة المشاهدة « رأيته ؛ رأيت بعضه ؛ لم اره كاملاً ؛ رأيت شيئا يسيراً منه ؛ رأيت النسخة بعينها ؛ رأيته بخطه . . . » .

وبعد أن جمع أبن النديم مادته العلمية عن هذه الروافد الثلاثة مسجلاً كل معلومة مسبوقة أو متبوعة بالرافد بحيث يكون واضحاً على وجه اليقين ماقرأه منها وما شاهده وما سمعه كما يكون رأيه الشخصي واضحاً كذلك . . بعد هذا كله استخدم المؤلف المنهج التحليلي في سرد المادة العلمية حتى يكون القارىء على بينة من صحة تلك المعلومات وقبول النديم لها أو شكه فيها أو رفضه لها والأمثلة الآتية مجرد عينات فقط على ذلك المنهج العلمي الفذ الذي انتهجه المؤلف في تسجيل معلومات كتابه :

ففي الفن الثاني من المقالة التاسعة وتحت مذاهب الهند يقول : حكى بعض المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وأن يكتب له اديانهم فكتب له هذا الكتاب قال محمد بن اسحق : الذي عني بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة

البرامكة ويوشك أن يكون هذه الحكاية صحيحة إذا اضفناها إلى مانعرف من أخبار البرامكة واهتمامها بأمر الهند واحضارها علماء طبها وحكمائها .

وتحت أخبار جابر بن حيان : قال جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين إن هذا الرجل يعني جابراً لا أصل له ولا حقيقة ، وقال بعضهم إنه ما صنف وإن كان له حقيقة إلا كتاب الرحمة وأن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه إياها . **وأنا أقول** إن رجلا فاضلاً يجلس ويتعب ويصنف كتابا يحتوى على ألفي ورقة ويتعب قريحته وفكره باخراجه ويتعب يده وجسمه ثم ينحله لغيره اما موجوداً أو معدوما ضرب من الجهل وإن ذلك لايستمر على أحد ولا يدخل تحته من تحلى ساعة بالعلم وأي فائدة في هذا وأي عائدة . والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر وتصنيفاته أعظم وأكثر والرازي يقول في كتبه المصنفة في الصنعة قال استاذنا أبو موسى جابر بن حيان [٣٧] .

وتحت سعيد بن وهب في الفن الثاني من المقالة الثالثة يقول « الكاتب وليس من آل وهب بن سعيد أصله من الفرس » وذلك حتى لايقع لبس أو خلط بين الاثنين .

وتحت البشى نجد مانصه « قال محمد بن اسحق أنا شاك في البشي هل هو بالشين او السين ؛ بست معروفة من أرض سجستان وبش لا نعرفها والذي اتقنته من لفظ أبي علي بالشين منقوطة فنسأل عن هذا الرجل وعن كتبه ويلحق ببابه وإن شاء الله » .

ومن أطرف ماكتبه عن الجاحظ يفند فيه مقولة قالها الجاحظ ونسبها إلى المأمون يمتدح فيها بعض كتبه يقول أبن النديم « قال الجاحظ لما قرأ المأمون كتبي في الإمامة وجدها على ما أمرته وصرت إليه وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها فقال المأمون : قد كان بعض من نرتضي عقله ونصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة فقلنا قد تربى الصفة على العيان ؛ فلما رأيتها رأيت العيان قد اربى على الصفة فلما فليتها أربى الفلى على العيان كما أربى العيان على الصفة ، وهذه كتب لايحتاج إلى حضور صاحبها ولا تفتقر إلى المخبر عنها وقد جمع استقصاء المعاني باستقصاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل والمخرج السهل ، سوقي ملوكي عامي خاصي » .

« قال محمد بن اسحق : أظن الجاحظ حسن هذا اللفظ تعظيما لنفسه وتفخيما لتأليفه وكيف يقول المأمون هذا الكلام مادحاً لتصنيف أو مثن على تأليف ؟ وقد كتب إلى ملك البرغر كتابا يحتوي على أكثر من مائة ورقة لم يستعن في ذلك بأحد ولم يورد فيه آية من كتاب الله جل أسمه ، ولا كلمة من حكيم يقدمه ولكن أطاع الجاحظ لسانه فقال » [٣٨] .

وعن صديق له ادعى سيطرته على علم الكيمياء يقول إبن النديم تحت الخنشليل (أبو الحسن أحمد) : وكان لي صديقا وزعم لي مرات أن الصنعة صحت له ولم أر آثار ذلك عليه لأني لا أراه إلا فقيراً وسخاً محارفاً وكان سمجا » [٣٩] .

وعند الكلام على القلم العربي في بداية الفن الأول من المقالة الأولى : « وقال كعب **وأنا أبرأ إلى الله من قوله** إن أول من وضع الكتابة العربية والفارسية وغيرها من الكتابات آدم عليه السلام وذلك قبل موته بثلاثمائة سنة وكتبه في الطين وطبخه فلما أصاب الأرض الطوفان سلم فوجد كل قوم كتابتهم فكتبوا بها »[٤٠] .

تلك كانت خطوط المنهج العام في الفهرست وكانت لأبن النديم لمسات منهجية في مواضع محددة يقتضيها السياق في بعض الجزئيات وعلى سبيل المثال فقط ماجاء في الفن الأول من المقالة الرابعة : قال محمد بن أسحق غرضنا في هذه المقالة أن نبين عن ذكر صناع أشعار القدماء وأسماء الرواة عنهم ودواوينهم وأسماء أشعار القبائل ومن جمعها وألفها ونذكر في الفن الثاني من هذه المقالة ، ويحتوي على أشعار المحدثين ، مقدار حجم شعر كل شاعر والمكثر منهم والمقل والله يعين على ما الزمناه نفوسنا من ذلك بمنه ولطفه » .

وفي بداية الفن الثاني من المقالة الرابعة ذاتها يبرز نقطة منهجية موضعية في تحديد حجم شعر كل شاعر وحتى لا يكرر الكلام تحت كل شاعر يقول أبن النديم « فإذا قلنا إن شعر فلان عشر ورقات فإنا انما عنينا بالورقة أن تكون سليمانية ومقدار مافيها عشرون سطراً أعني في صفحة الورقة فليعمل على ذلك في جميع ما ذكرته من قليل أشعارهم وكثيره وعلى التقريب قلنا ذلك وبحسب مارأينا على مر الزمان لا بالتحقيق والعدد والجزم » .

ولقد كان لأبن النديم وفهرسته أثره الواضح في الببلوجرافيات التي جاءت بعده كما كان له أثره البارز في كثير من خطط التصنيف سواء التصنيف الفلسفي أو التصنيف الببليوجرافي مما نحتاج معه إلى دراسة مستقلة في هذا الصدد . ولسوف يقف علماء المعلومات طويلاً أمام الحس الببلوجرافي لأبن النديم والذي سبق به أوربا بعشرة قرون على الأقل .

(٤)
حواشـــي الدراســـة

١ ـ ياقوت الرومي الحموي : معجم الأدباء . بيروت ، دار المستشرق ، د . ت . ص ١٧ .

٢ ـ إبن أبي اصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ . ص ٩١ المتن والهامش ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٨٦ ، ص ٢٨٧ ، ص ٣٢٩ ، ص ٤١٤ .

٣ ـ هذه النسخة كانت من ممتلكات المقريزي وعليها تعريف بخطة وتوقيعه .

٤ ـ نفس نسخة المقريزي .

5 - FIHRIST OF AL NADIM: atenthcentury survey of muslim culture edited and tranlated by Bayard Dodge. New York, Columbia Universaty Press 1970, 2, vols .

٦ ـ كتاب الفهرست للنديم ؛ أبو الفرج محمد أبي يعقوب اسحق المعروف بالوراق ، تحقيق رضا تجدد . طهران ، د . ن ، ١٩٧١ . ٤٢٥ ، أ ـ د ، ١٧٠ ص .

٧ ـ كان إبن النديم يشير دائماً إلى نفسه بعبارة : يقول أوقال « محمد بن اسحق » والموضع الوحيد الذي ذكر فيه أبن النديم « قال محمد بن اسحق النديم المعروف بأبن يعقوب الوراق » وهو مطلع المقالة العاشرة لا أعتقد إطلاقا أنه قائلها بلها إضافة من عند الناسخ .

٨ ـ الفهرست . المقالة السادسة . الفن الثامن .

٩ ـ الفهرست . المقالة الخامسة . الفن الخامس .

١٠ ـ الفهرست . المقالة السابعة . الفن الأول .

١١ ـ الفهرست لأبن النديم ، تحقيق جوستاف فلوجل . ليبزج . ١٨٧١ : المقدمة .

١٢ ـ الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك . كتاب الوافي بالوفيات ، بـاعتناء س . ديدرينغ . فيسبادن ، فرانز شتاينر ، ١٩٧٤ . ج ٢ ص ١٩٧ ؛ مخطوطة شيستربيتي ، ملحوظة المقريزي .

١٣ ـ الفهرست لأبن النديم تحقيق جو ستاف فلوجل ، ليبزج ، ١٨٧١ : المقدمة .

١٤ ـ نفس المصدر السابق والصفحة .

١٥ ـ خير الدين الزركلي : الاعلام ؛ قاموس تراجم لأشهر الرجـال والنساء من العـرب والمستعربين والمستشرقين : ـط ٣ ـد . م ، د . ن ، د . ت . جـ ٦ ص ٢٥٣ ؛

عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية . بيروت ، مكتبة المثنى ودار احياء التراث العربي ، د . ت . ص ٤١ .

١٦ ـ عبد الكريم الأمين : إبن النديم في كتاب الفهرست ، الرائد الأول للببلوجرافيات في التراث العربي والإسلامي . الأقلام . الجزء السادس ـ السنة الخامسة : شباط « فبراير » ١٩٦٩ . ص ص ٤٣ ـ ٥٥ ؛ ناهد عباس عثمان : الفهرست لابن النديم ، صياغة حديثة . ط ١ . الدوحة : دار قطري بن الفجاءة ، ١٩٨٥ . ص ١٠ ؛ إبراهيم الابياري : الفهرست لأبن النديم . تراث الإنسانية مج ٣ ، ع ١ ص ص ١٩٣ ـ ٢٠٩ .

١٧ ـ الفهرست . المقالة السابعة . الفن الأول .

١٨ ـ الفهرست . المقالة الثانية . الفن الثالث .

١٩ ـ إبن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي : لسان الميزان . ط ٢ . بيروت : مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، ١٩٧١ . جـ ٥ ، ص ٧٢ (هذه الطبعة مصورة عن الطبعة الاولى لمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في حيدر أباد الدكن سنة ١٣٣١ هـ) .

٢٠ ـ إبراهيم الابياري : المصدر السابق ص ٢٠٠ ؛ عبد الكريم الأمين : المصدر السابق ، ص ٤٤ ؛ ناهد عباس عثمان : المصدر السابق ص ٩ .

٢١ ـ إبراهيم الابياري : المصدر السابق ص ١٩٤ .

٢٢ ـ دودج ، بيارد : حياة ابن النديم ، ترجمة د . ج . شوريز . مجلة اللغة العربية . دمشق ، الجزء الثالث ، المجلد الخامس والاربعين ١٩٧٠ ص ٥٤٥ وما بعدها .

٢٣ ـ نفس المصدر السابق والصفحات .

٢٤ ـ ابراهيم الابياري المصدر السابق والصفحات .

٢٥ ـ DODGE, BAYARD : THE FIHRIST OF AL NADIM VOL . 1.p xuii .

٢٦ ـ الفهرست . المقال الأولى . الفن الأول .

٢٧ ـ DODGE , BAYARD : Ibld . p.XIX .

٢٨ ـ الفهرست المقالة الرابعة . الفن الثاني .

٢٩ ـ نفس المصدر والموضع .

٣٠ ـ ابراهيم الابياري . المصدر السابق ص ١٩٣ .

٣١ ـ الفهرست . المقالة السابعة . الفن الثاني ؛ المقالة العاشرة على سبيل المثال فقط .

٣٢ ـ الفهرست . المقالة العاشرة على سبيل المثال فقط .

٣٣ ـ إبن حجر العسقلاني ، شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي : المصدر السابق والصفحة ؛ DODGE , BAYARD , Ibid P. XVIII - XXI .

٣٤ ـ بيانات هذه المصادر على التوالي :

أ ـ إبن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل احمد بن علي : نفس المصدر والصفحة .

ب ـ الصفدى ، صلاح الدين خليل بن ايبك : نفس المصدر والصفحة .

ج ـ ياقوت الرومي الحموي . نفس المصدر والصفحة .

د ـ كتاب الفهرست للنديم ، تحقيق رضا تجدد . نفس المصدر السابق ، المقدمة .

٣٥ ـ تم إعداد الجداول بالعد والاحصاء المباشر من المقالات والفنون والمؤلفين في الفهرست .

٣٦ ـ لم يذكر أبن النديم أية فروق بين تلك الأنواع ولم يعزلها وإنما هي جميعا تحليلات واستنتاجات قام بها الباحث .

٣٧ ـ الفهرست . المقالة العاشرة .

٣٨ ـ الفهرست . المقالة الخامسة . الفن الأول .

٣٩ ـ الفهرست . المقالة العاشرة .

٤٠ ـ الفهرست . المقالة الأولى . الفن الأول .